

التعدد مصدر قوة

نحن في حالتنا العامة، نؤمن بأن تعدد المعرفة ومصادرها يثري الفهم، وأن تعدد الهوية يمنح الإنسان أفقا أوسع للانتماء والتفاعل. إن مسألة التعدد المعرفي والتنوع حقيقة تاريخية، و ظاهرة اجتماعية متجذرة، وهذا التنوع ليس ظاهرة فريدة منحصرة في الجانب العقائدي والروحي، بل هي ظاهرة ترجع إلى ظاهرة التنوع الطبيعية العامة التي تصبغ وجود الإنسان في جميع جوانب حياته، بدءاً من الإختلاف بين البشر في الخلقة، ومروراً باختلافهم في المشاعر والأحاسيس والطبائع والقدرات والمواهب والتفكير. والتعدد لا يعني نفي المسلمات كأصول ثابتة غير قابلة للنفي والإنكار، كالتوحيد وشمولية الرسالة، وغيرها من الثوابت.

هذه قناعة راسخة في الخطاب الثقافي والفكري، لكن الواقع اليوم يقول شيئا مختلفا. في عالم مضطرب، تتصاعد فيه النزاعات، وتشتد فيه حدة الاستقطاب، لم يعد للتعدد قيمة، صار الآخر يُرفض لا لشيء إلا لأنه مختلف، وصارت الهوية تُستخدم أحيانا كسلاح دفاعي بدل أن تكون مساحة تعارف. ما أوصلنا إلى هذه الحالة ليس التعدد نفسه، بل هشاشة البيئة التي تحتضنه وإقصاء الآخر. فحين تتدفق المعرفة من مصادر متعددة دون أدوات معرفية للنقد والتمييز، يصبح التعدد المعرفي بابا للفوضى ومسرحا للتضليل، بدل أن يكون طريقا للفهم وبابا للمعرفة.

التعدد في المعرفة يضيف للمجتمعات قدرة أكبر على التحليل، ويعطيها مرونة في مواجهة الأزمات، لأنه يتيح أكثر من تفسير وأكثر من حل، ويفتح الآفاق للتفكير الواسع، لكنه في المقابل قد يخضع من وضوح الرؤية إذا لم تخلق منظومة تعليمية وثقافية قادرة على الفرز بين المعلومة والرأي، وبين الحقيقة والتأويل.

وكذلك تعدد الهوية يضيف عمقا إنسانيا، ويجعل الفرد أكثر قدرة على التفاعل مع الآخرين، لكنه قد يخلق حالة من الارتباك إذا لم يكن هناك إطار جامع ينظم هذه الانتماءات ويمنع تصادمها. الإدارة المثلى للتعدد تقوم على مبدأ بسيط جدا،، يتمثل في تنظيم الاختلاف وليس مناهضته، عن طريق جعل أرضية مشتركة تلنقي فيها الاتجاهات الفكرية المختلفة. وهذا يتطلب بناء وعي عام يقبل التباين والاختلاف، لكنه في ذات الوقت، يتمسك بمجموعة من القيم المشتركة التي لا خلاف عليها.

إن العلاقة بين تعدد المعرفة وتعدد الهوية، هي أن المعرفة الواسعة تفتح المجال لهوية أكثر مرونة، والهوية المرنة تستوعب بدورها مزيدا من المعرفة..

التعاظم الإيجابي مع التعدد يعني الاستفادة منه في تطوير المجتمع، وفي تحسين جودة القرار، وفي توسيع دائرة الفهم. علي عكس التعاظم السلبي، الذي يظهر حين يتحول التعدد إلى انقسام حاد، أو إلى حالة من العداء المستمر بين المكونات المختلفة.

هناك تناقض واضح في سلوك الكثيرين، ممن يؤمنون بالتعدد كفكرة عامة، لكنهم يتراجعون عنه عندما يمسهم بشكل مباشر. يقبلون الاختلاف في النظريات، ويرفضونه في التفاصيل التي تخصهم.

هذا التناقض يحتاج إلى مراجعة صادقة، في النهاية، التعدد ليس خيارا يمكن قبوله أو رفضه، بل هو واقع لا يمكن تجاوزه. وعلينا أن نملك القدرة والشجاعة على إدارته بطريقة تخدم مجتمعاتنا، لأن التعدد، إن أحسننا التعامل معه، يصبح مصدر قوة، وإن أسأنا استخدامه، يتحول إلى أحد أسباب الضعف. والنتيجة في الحالتين لا يحددها وجود التعدد، بل مستوى الوعي الذي يحكمه، ويديره.